

الفصل العاشر

التوسع وتعزيز القوي

صفحة بيضاء

التوسع وتعزيز القوي

مع حلول عام ١٩١٢، أي عندما كانت حركة الإخوان قد ضربت جذورها في عمق الأرض وأكدت مع رسوخ تلك الجذور سهولة وسرعة حشد قوة ضاربة وملهمة بفكرة مثالية دينية متعصبة، أصبح «ابن سعود» السيد المعترف به على «وسط الصحراء، أو بمعنى آخر على مناطق «نجد» التي تمتد من إقليم «وادي الدواسر» في الجنوب إلى الحد الجنوبي لـ «جبل شمر» في الشمال، ومن الحد الغربي لإقليم «الأحساء» الخاضع للحكم التركي حتى الحدود الشرقية لمنطقة الحجاز التي كانت أيضاً جزءاً من الإمبراطورية التركية. كان يربط بين هاتين المنطقتين التابعتين للحكم العثماني شبه قوس من المناطق الخاضعة للأتراك والتي تضم سوريا والعراق. وكان جبل شمر - المعترف أيضاً بالسيادة العثمانية عليه - يشكل دولة فاصلة تجثم فوق مناطق من داخل العراق وسوريا والجزء الشمالي من الحجاز، وتقع تقريباً فوق خط العرض السابع والعشرين. ولم تصل حدود المملكة السعودية في أية مرحلة من المراحل إلى شواطئ البحار، في حين كانت هذه المملكة من كل الجوانب باستثناء الجانب الجنوبي (حيث تشكل رمال صحراء الربع الخالي خطأً دفاعياً طبيعياً في وجه الأراضي الواقعة على شاطئ المحيط الهندي) مطوقة بمراكز ونقاط استعمارية تابعة للحكم العثماني، أو بمعنى آخر تابعة للقوة المعروفة تقليدياً بعدائها للعرب والتي تعزز موقفها على طول ساحل البحر الأحمر بسبب احتلالها لمناطق اليمن وجبال «عسير»، هذا وتجثم في الطرف الجنوبي من مناطق اليمن المستعمرة

البريطانية ومحمية «عدن»، في حين كانت الكويت في ذلك الوقت تحت الحماية أو الوصاية البريطانية. كانت الكويت بمثابة الجزء المكسور من الحلقة أو الأنشطة الضخمة التابعة للحكم العثماني، التي تكتنف المملكة السعودية من خاضعاتها الثلاث، وكانت البحرين والحافة الساحلية لـ «عُمان» إضافة إلى موانئ «حُضرموت» جميعها خاضعة على نحو قليل أو كثير للسيادة البريطانية أو للإشراف البريطاني أو حتى للسيطرة البريطانية المباشرة.

ومما يزيد من حجم مشكلات «ابن سعود» أن كافة المناطق الخاضعة لحكمه كانت مجردة من الثروات الطبيعية من أي نوع كان، ولم يكن محصول جنبي تمور أشجار النخيل كافياً ليغطي احتياجات المناطق المأهولة بالسكان سواء البدوية منها أو الحضرية، وكان محصول القمح بحاجة إلى تعزيزات تسنده عن طريق استيراد الحبوب من الخارج بما في ذلك الأرز الذي كان «ابن سعود» أول من وفره للناس كسلعة غذائية رئيسية وبالتحديد للطبقة الميسورة. اعتمد الناس في المدن وبشكل رئيسي على المواد المستوردة من الدول الأخرى كالملابس، لكن البدو وجدوا أنفسهم مضطرين لاستعمال الأقمشة الخشنة التي يغزلونها من شعر وصوف الماشية. وكانت في مواسم الخير تتوافر مواد السمن واللحم والحليب، إلا أن أكل اللحم بالنسبة للبدو كان يعتبر رفاهية رغم أنهم كانوا يربون الماشية، كما كان يعتبر بيع الحليب شيئاً معيباً. وكانت المادة التي يمكنهم بيعها واستهلاكها هي السمن، كما كانت تربية الجمال بمثابة الحرفة الرئيسية ومصدر الرزق بالنسبة للبدو الذين كانوا إما يبيعون جمالهم أو يؤجرونها للركوب أو النقل، أو أن يذبحونها

للاستفادة من لحومها . وكانت الزراعة هي شغل الناس في مناطق الحضر والقرى ، هذا وأهمل الناس صناعة الأكواخ ولم يعمل بها سوى الفقراء لتسد رمق احتياجاتهم الضرورية . كان الوضع الاقتصادي بائساً جداً ، كما أن التطلعات السياسية نادراً ما كانت مشجعة ، ومع ذلك لم يكن «عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود» الرجل الذي يمكن أن يرضخ للظروف الجبرية ويستسلم للظروف القاسية التي كانت تواجهه ، خاصة أنه بلغ ذروة الإنجازات العظيمة التي رفعت من منزلته . ومما لا شك فيه أنه كان يشجع نفسه كما أنه كان يجد العزاء حيال تلك الأمور الصعبة بالرجوع إلى الآية القرآنية المحببة إليه : التي تقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾ .

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح بإمكان «عبد العزيز» أن يضع الجزء الأول من خطته المستقبلية حيز التنفيذ . ولعل المرء يفكر بأنه نظراً للظروف السائدة في تلك الفترة كان لازماً على «عبد العزيز» أن يعمل على ترسيخ الأمن والاستقرار في المناطق التابعة لحكمه في الصحراء العربية ، وذلك عن طريق تصفية عدوه اللدود ألا وهو أسرة «آل رشيد» الحاكمة في «حائل» . لكن لم يكن «عبد العزيز» ليفكر على ذلك النحو ، ومن المحتمل أنه كان قد فكر بأن ضم «جبل شمر» إلى مملكته في تلك الفترة يمكن أن يفاقم من الصعوبات الاقتصادية التي كانت تواجهه . لكن مهما تكن حقيقة الأمر وحقيقة أنه قد أصدر أمراً لحشد كافة القوات ، إلا أنه تحرك في شهر شباط من عام ١٩١٣ من الرياض باتجاه أماكن تجمع المياه في منطقة «الخفس» الواقعة على الطرف الغربي من سهل «العرمة» حيث تتوافر المراعي التي

يمكن أن تكفي ماشية العديد من الجماعات الإقليمية المحاربة في صفوف قواته . كان من المفروض أن تتجمع قواته في تلك المنطقة لتشكل مجمل جيشه . وأثناء انتظاره وصول كافة الحشود وليحول الأنظار عن أهدافه وخططه الحقيقية ، قام بإرسال مجموعة مقاتلة لتغزو قبيلة «المر» محدثة لهم أضراراً مادية وعسكرية إلى حد ما .

ثابر «عبد العزيز» في المسير بقواته بصعوبة ووصل على بعد مسافة قصيرة من منطقة «الهفوف» التي كانت تعتبر عاصمة إقليم «الأحساء» والتي حدث وأن زارها خلال أشهر الشتاء الماضي الرحالة البريطاني الكابتن/ جي إي ليتشمان . وكان هذا الرحالة قد وصل إليها في نهاية رحلة طويلة في الصحراء بدأها من بغداد وتغلب خلالها على عدة عقبات ومغامرات واجهته خلال مسيرة إلى الرياض عن طريق بريدة . وانتهت تلك الرحلة به على شواطئ «الأحساء» وهناك وجد القوات التركية المراقبة في ذلك الإقليم - والذي هو بمثابة منفى لهم - فرحين جذلين غير مبالين بقضاء بقية حياتهم في تلك البراري . وكان آخر شيء كان يمكن أن يفكروا فيه - حتى في أحلامهم - هو أن يتم إعفاؤهم بشكل مبكر من الخدمة في الصحراء العربية ، إلا أنهم وجدوا أنفسهم مضطرين لمغادرة الصحراء العربية إلى الأبد وذلك بعض مضي أقل من خمسة أشهر على الزيارة التي قام بها هذا الرحالة البريطاني . بلغ تعداد قوات الحامية التركية في «الهفوف» ١٢٠٠ رجل ، هذا إضافة إلى حامية تركية صغيرة كانت موجودة في منطقة «القطيف» كما كان هناك العديد من المراكز العسكرية البسيطة المبعثرة حول مناطق ذلك الإقليم . أمضى «ابن سعود» مساء اليوم الثامن من شهر آيار (مايو) يعد العدة

للهجوم على المدينة المحصنة بأسوارها وعلى قلعتها الكبيرة ، كما كان يعطي كبار مساعديه من القادة تعليمات مشددة تتعلق بالكيفية التي يجب أن ينفذ بها الهجوم . أقدم جنوده على قطع بعض أشجار النخيل في واحة صغيرة قريبة من المدينة وعملوا من جذوعها سلالم ، ووزعوا الحبال التي كانت بحوزتهم (والتي كان من الطبيعي لكل مسافر في الصحراء العربية أن يحملها معه لسحب الماء من الآبار) على كافة أعضاء المجموعة المكلفة بتسليق الأسوار ليقوموا بدورهم بتدليتها من أعالي الأسوار . ومع حلول منتصف الليل تحركت الدفعة الأولى سيراً على الأقدام ، وعند حلول الفجر تمكنت من وضع السلالم على الأسوار استعداداً للتسليق . تمكن هؤلاء الجنود من قتل بعض الحراس الذين غلب عليهم النوم ، وقبل أن يتاح لتلك الحامية فرصة استدراك رشدها لصدورها بفعل الهجوم الليلي ، كانت قلعة «الكوت» الكبيرة قد سقطت عملياً في أيدي القوات السعودية . وعلى الفور انسحبت القوات التركية واحتمت بجامع «إبراهيم باشا» واستحكمت فيه لتراقب التطورات . تمكنت قوات «ابن سعود» في تلك الأثناء من الاستيلاء على أحد بوابات المدينة ، الأمر الذي مكن قواته من أن تتدفق للداخل وأخذوا يطلقون عياراتهم النارية ويهتفون بصرخات الحرب وذلك ليزيدوا من حدة الاضطراب الذي أصاب الناس ، وليؤثروا على عدوهم ويولدوا لديه الشعور بالخيبة من جراء الكارثة التي حلت به . وتم إرسال أحد الأسرى الأتراك إلى قائده ليبلغه ضرورة استسلام كافة أفراد الحامية التركية ، مقابل ضمان سلامة أرواحهم وممتلكاتهم ومرافقتهم بسلام حتى الشاطئ ليتسنى لهم التوجه عبر البحر باتجاه البحرين . في تلك الأثناء قامت القوات

السعودية بوضع ألغام تحت الأبنية التي لجأت إليها قوة العدو الرئيسية، وأصدرت إليهم تحذيراً بأنها ستفجر الألغام إذا تأخروا أو تباطأوا في الاستسلام.

لم يكن لدى القائد التركي العديد من الخيارات حيال تلك المشكلة، وذلك وافق على أن يلقي سلاحه وفقاً للشروط التي تقدم بها «ابن سعود»، وعندما حان الوقت المناسب خرجت الحامية التركية تلك من «الهفوف» ورافقتها أثناء انسحابها قوة من الجيش السعودي بقيادة «أحمد بن ثيان» وهو من أبناء عمومة القائد السعودي، ومن هناك استقلت القوات التركية ما كان موجوداً من القوارب وأبحرت باتجاه البحرين. ومن البحرين قرر القائد التركي أن يقوم بمحاولة لاستعادة الوضع فأرسل قوات جديدة إلى «العقير» لكن القوات السعودية تمكنت من أسر بعضاً منهم أثناء نزولهم إلى الشواطئ، وتمكن البعض الآخر من العودة بالمراكب إلى البحرين. قدم «ابن سعود» شخصياً إلى «العقير» وأطلق سراح السجناء وسمح لهم بالذهاب بالقوارب إلى البحرين، وتحرك بعد ذلك بقواته إلى «القطيف» وهناك لم يواجه أية مشكلات بل على العكس تجمهر الأهالي ليحيوا حاكمهم الجديد. تمكن «ابن سعود» في كل من «القطيف» وقرى بلدان «الأحساء» من إعادة استكمال مخزونه الذي كان قد نضب إلى حد بعيد، كما تمكن من جمع الكثير من الأموال.

تمكن «ابن سعود» وبسهولة من إحباط محاولة تركية لاستعادة «القطيف». وبعد أن شعر بالرضى عن العمل الذي قام به على مدى شهر مضى قرر «ابن سعود» العودة جذلاً إلى الرياض، لكنه قعل ذلك بعد أن

أعد الترتيبات المناسبة لإدارة إقليمه الجديدة. كرس «ابن سعود» اهتماماً بشكل خاص على تثقيف الأهالي هناك وفق تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة التي تشمل كافة أشكال الحياة هناك. وأعد «ابن سعود» أيضاً ترتيبات من أجل بناء المساجد والمدارس، وعين عليها رسميين جديرين بالثقة ليتلقوا الأموال وليقوموا بتوزيعها، وأعاد تشكيل هياكل المخاكم لتعمل وفق الشريعة الإسلامية، وأخيراً وليس آخراً عين حاكماً جديداً بقي في منصبه لمدة ربع قرن إلى أن وافته المنية، وبذلك أصبح أسطورة عصره وزمانه. وكان ذلك الحاكم هو «عبد الله بن جلوي» الذي شارك ابن عمه في الهجوم الشجاع الذي حقق استرجاع العاصمة الرياض في عام ١٩٠٢. سبق أن كان حاكماً عاماً على إقليم «القصيم» منذ أن استعادت القوات السعودية. ومما لا شك فيه أن «ابن سعود» كان يستنير برأيه بخصوص خططه الهادفة للهجوم على إقليم «الأحساء».

كان «عبد الله بن جلوي» قد غادر «بريدة» برفقة سيده ليشترك في حملة الأحساء تماماً قبل وصول الرحالة البريطاني «ليثمان» إليها في شهر كانون الأول عام ١٩١٢. كما كان «فهد بن معمر» في تلك الفترة يدير شؤون حكم بريدة. هذا وتم تعيين «عبد الرحمن بن سويلم» (الذي كان قد قاد القوة العسكرية لاحتلال «القطيف») أميراً على الميناء، لكن تابع للقيادة العامة لـ «عبد الله»؛ ووضعت «العقير» تحت إمرة «عبد الرحمن بن خير الله» الذي بقي في ذلك المنصب طيلة نفس المدة التي بقي فيها رئيسه حاكماً على «الهفوف».

وعلى نحو مدهش ولكن بقليل من الجهد تمكن «ابن سعود» من الدخول

إلى مناطق الخليج العربي من خلال جبهة عريضة تمتد من أراضي الكويت شمالاً حتى إمارة «قطر» في الجنوب. حدث في قطر عام ١٩٠٥ أن مات صديق «ابن سعود» وحليفه القديم «قاسم بن ثاني» عن عمر يناهز المائة وإحدى عشر عاماً. والجدير بالذكر أن «ابن سعود» كان قد ذهب في أوائل ذلك العام لنجدة صديقه «قاسم» الذي كان يتمتع بسمعة أسطورية واحتفظ بقدراته الجسدية والذهنية حتى وفاته. وكان الناس غالباً ما يشاهدونه في ساعات العصر راكباً فرسه وبرفقة مجموعة من الفرسان معظمهم من أبنائه وأحفاده.

وبعد وفاته خلفه في الحكم ابنه «عبد الله» الذي حافظ على علاقات ودية مع جاره العظيم الذي بدوره لم يتدخل أبداً في شؤون استقلال شبه الجزيرة العربية. كانت الإمبراطورية العثمانية غير مبالية لخسارتها إقليم «الأحساء»، ودارت مفاوضات مع «ابن سعود» عن طريق شخصية سياسية من البصرة هو «السيد طالب النقيب» وفي تلك الأثناء كان والي البصرة «سليمان شفيق كمال باشا» يحري حواراً مع «زامل السبهان» الذي كان حاكماً على «حائل» بالنيابة عن «سعود بن رشيد» وذلك بخصوص الترتيبات المتعلقة بطلب ابن رشيد من الأتراك تزويدهم بالمال والسلاح اللازمين لخوض المعركة المرتقبة ضد «ابن سعود». واحتج هذا الأخير لدى «زامل» على نقضه لشروط الهدنة التي تم التوصل إليها آنذاك بين البلدين والتي نجمت عن قبول هدية الأتراك المؤلفة من اثني عشر ألف بندقية مع ذخيرتها، إضافة إلى مبلغ من المال على أن تستعمل جميعها ضده شخصياً، وأجاب «زامل» بكل صراحة بأنه كان إلى جانب الأتراك كقوة لها سيادتها وسلطانها، وأنه إذا

حدث تماس بين مصالحهم وبين علاقته مع الرياض فسيقف إلى جانب الأتراك ويخدم مصالحهم . قبل «ابن سعود» ذلك التحدي الضمني وأصبحت الهدنة في هذا الحال في عداد المنتهية . وعلى أي حال كان «ابن سعود» متنبهاً لفرط حساسية موقعة ، لذلك توخى السلامة في محادثاته التي أجراها مع «سيد طالب» في منطقة «الصبيحية» بالقرب من الكويت والتي انتهت بإعطائه تعهداً شفوياً بالاعتراف بسيادة السلطان التركي على منطقته مقابل أن يقدم الأتراك له المال والسلاح الكافي الذي يمكنه من تحقيق أمن الإقليم الساحلي التابع لسلطته . والجدير بالذكر أن الخيرات الزراعية في هذا الإقليم إضافة إلى عائدات الجمارك فيه كانت تمثل وبلا منازع أغنى جوهرة في تاجه . هذا ولم يتم تنفيذ أي جزء من هذا التفاهم المبدئي كما أن اندلاع الحرب بين الأتراك والبريطانيين في شهر تشرين الأول من عام ١٩١٤ وضع نهاية قطعية لآمال الأتراك في استرداد إقليم «الأحساء» .

وعلى ضوء هذه التطورات يبدو جلياً أن «ابن سعود» تصرف في الوقت المناسب ليعزز وجوده في إقليم «الأحساء» الذي كان من الممكن أن يسقط في أيدي قوات الحملة البريطانية المحتشدة في البحرين . فقد عمل «ابن سعود» كل جهده في تلك الفترة ليضمن تعاطف البريطانيين معه وليضمن دعمهم لموقفه في إقليم «الأحساء» واستغل بذلك التزام الأتراك الحقيقي وتقاربهم وبشكل مسبق من موقف الألمان ، لكن البريطانيين كانوا منشغلين على الصعيد الدبلوماسي يحاولون درء مثل ذلك التطور عندما قام الممثل البريطاني في البحرين في زيارة مجاملة لـ «ابن سعود» الذي كان في «العقير» بعد سقوط إقليم «الأحساء» لم تكن لديه أية تطمينات ملموسة يمكن أن

يقدمها للأمير السعودي . وعند نهاية ذلك العام لم يكن بإمكان الكابتن شكسبير - الوكيل السياسي البريطاني في الكويت - أن يناقش مع «ابن سعود» سوى الأمور الضمنية العامة المتعلقة بالوضع الجديد ، كما أنه لم يكن بمقدوره أن يطلعه على معلومات معينة كانت بحوزته . والجدير بالذكر أن هذا اللقاء مع «ابن سعود» تم أثناء مرور «شكسبير» عبر الرياض في سياق رحلته الكبيرة عبر أراضي الصحراء العربية (وذلك من الكويت إلى السويس) ، علماً بأن «شكسبير» هذا سبق له أن اجتمع مع «ابن سعود» في أحد معسكراته في الصحراء . وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الحكومة البريطانية كانت قد حجبت وعن قصد تلك المعلومات عن «ابن سعود» ولم تطلعه عليها لمدة سبعة عشر عاماً ، إلى أن حان عام ١٩٣٠ إذ وجدت نفسها مضطرة أن تقدم وثائق تثبت أنها الوارث الشرعي للتركة العثمانية ، خاصة فيما يتعلق بمناطق لم يسبق لها أن احتلتها ولم يسبق أيضاً لأي قوة تركية أن تجرأت في الدخول إليها . انفضح أمر سخافة ومهزلة هذا الادعاء لكل الناس إلا أن البريطانيين استمروا ولعدة سنوات جاهدين لتحقيقه ومتابعته ، ولا زالت أصداؤه تنذر بالشؤم في بعض أجزاء جنوب الصحراء العربية .

فالمعلومات التي لم يكن بإمكان «شكسبير» أن يفصح عنها لمضيفه «ابن سعود» كانت هي أنه في أقل من شهرين على استيلاء «ابن سعود» لإقليم «الأحساء» تم توقيع اتفاقية في التاسع والعشرين من شهر حزيران بين الأتراك والبريطانيين . وقع الاتفاقية عن الجانب التركي «إبراهيم حقي باشا» ووقعها عن الجانب البريطاني وزير الخارجية البريطانية السير «إدوارد غريه» ، ووضحت تلك الاتفاقية مصالح كلا البلدين في مناطق الصحراء

العربية، وبالتحديد في الكويت والبحرين ودول الساحل الخليجي . وكان لهذه المناطق بطريقة أو بأخرى مساس بإقليم «الأحساء» الذي لم يرد ذكره في الاتفاقية والذي كان يفترض ضمناً بأنه لا يزال جزءاً من الإمبراطورية العثمانية . تم الإعداد للتصديق على هذه الاتفاقية خلال ثلاثة شهور، ولكن لسبب ما تم تحديد موعد التصديق عليها حتى تاريخ الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأول عام ١٩١٤ ، وصادف ذلك نفس اليوم الذي أعلنت فيه بريطانيا الحرب على الإمبراطورية العثمانية . لكن لم يكن ذلك أسوأ ما في الأمر بل حدث ما هو أكثر سوءاً، إذ إنه لا بد أن كانت المفاوضات بذلك الخصوص جارية في وقت كان فيه «شكسبير» يجري زيارته الودية لـ «ابن سعود» في الرياض . على أي حال كان «شكسبير» على وشك الوصول إلى السويس عندما وقع في المفاوضات في التاسع من شهر آذار عام ١٩١٤ اتفاقية أخرى في لندن صادق عليها الطرفان في الثالث من شهر حزيران من العام نفسه . لم يكن معلوماً حتى هذه المرحلة من تطور الأحداث فيما إذا كان هناك أمل في استرداد إقليم «الأحساء» بمساعدة وموافقة البريطانيين، أو إذا كانت لديهم دوافع ومناكة «ابن سعود»، أو أن المبعوث التركي كان قد تصرف بدوافع دنيئة، لكن شروط الاتفاقية نصت على تقسيم كافة أرجاء الصحراء العربية بين الحكومتين، وذلك برسم خط مستقيم يمتد من أسفل مناطق «قطر» في شبه الصحراء العربية عبر الصحراء ليلتقي بالطرف الشرقي للحدود المرسومة عام ١٩٠٢ بين محمية «عدن» و«اليمن»، وكانت الغاية من ذلك جعل كل المناطق الواقعة شمال ذلك الخط تابعة للحكم التركي بما في ذلك ليس فقط إقليم «الأحساء» بل كافة مناطق «نجد» أيضاً، علاوة على

ذلك تقرر أن تكون كافة المناطق الواقعة جنوب ذلك الخط تابعة للحكم البريطاني . ولا عجب إذن من أن الحكومة البريطانية كانت حذرة بل وضئينة بالسماح لـ «ابن سعود» بمعرفة أسرار المكائد التي كانت ترتبها مع أقوى أعدائه ، والأقل عجباً من ذلك أن الإفشاء عن هذه الخطة والذي جاء في وقت متأخر ولد الانطباع من أن الحكومة البريطانية أخذت الدور التركي التقليدي المعروف كونه العدو الرئيسي للحكم السعودي . والجدير بالذكر أن ذلك الانطباع أصبح الانطباع السائد منذ ذلك الحين . ويمكن القول في سياق هذا الحديث إن ثمة عوامل أخرى ظهرت خلال وبعد الحرب العالمية الأولى بتؤكد وتثبت صحة هذا الانطباع ، ولم يكن بإمكان الأحداث الأخيرة التي حدثت في منطقة «البريمي» أن تزيل ذلك الانطباع .

وعند اندلاع الحرب في شهر تشرين الأول عام ١٩١٤ قام السير «بيرسي كوك» الذي كان في وقتها المسؤول السياسي للحملة البريطانية العسكرية في بلاد الرافدين باستدعاء «شكسبير» من إجازاته وأرسله في مهمة لتمثيل المصالح البريطانية في «الرياض» . وكان «شكسبير» الشخصية المثالية لتلك المهمة لما له من خبرة عسكرية وتجربة سياسية في التعامل مع العرب ، علاوة على أنه كان شخصية محبوبة ومرغوب لها لدى «ابن سعود» .

ولعل الخطأ الوحيد الذي ارتكبه شكسبير الذي دلت التجربة على أنه كان خطأ قاتلاً وجسيماً ، هو أنه لم يقبل أن يلبس اللباس العربي أثناء وجوده على الأرض العربية . وفي الوقت الذي وصل فيه «شكسبير» إلى الرياض كانت الأعمال العدائية بين «حائل» والرياض قد بدأت بمبادرة من قبل

«ابن رشيد». ومما لا شك فيه أن الأتراك حثوا حليفهم «ابن رشيد» على القيام بأعمال تستهدف تصفية النظام السعودي . وفعلاً حدث في أواخر شهر كانون الأول أو بداية شهر كانون الثاني أن «ابن رشيد» تقدم بقواته إلى داخل الحدود السعودية وكان «ابن سعود» في تلك الفترة قد أعد ترتيباته لمجابهة نشاطات «ابن رشيد» والتصدي لها . رافق «شكسبير» «ابن سعود» في حملته ، في معركة «جراب» التي دارت بينه وبين قوات «ابن رشيد» على مسافة قريبة من «الزلفي» ، حيث حالف الحظ القوات السعودية المرتجلة في أحد مواقع المعركة ، كما حالف الحظ فرسان «جبل شمر» في مواقع أخرى . وقتل في حمأة المعركة «شكسبير» الذي كان يوجه نيران مدافع السعوديين ، وتوقف القتال وادعى كل من الطرفين النصر لنفسه . والحقيقة أن المعركة انتهت دون غالب أو مغلوب . لم يكن موت «شكسبير» في شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩١٥ مجرد كارثة لبلاده فحسب ، بل كان كارثة أيضاً بالنسبة لـ «ابن سعود» الذي جلس في خيمته إثر ذلك الحدث عابساً متجهماً . تطورت الأحداث في مناطق أخرى من الصحراء العربية وحولت مع تطورها موقف «ابن سعود» ليصبح نسبياً موقفاً غير مؤثر في مجريات سياسة الصحراء العربية . وزادت تلك الظروف أيضاً من عدد أعدائه كما قوّت من شوكتهم ، وكان من بين أولئك الأعداء ابن رشيد الذي حظي بدعم الأتراك له ، لكن كان خطره بسيطاً إذا ما قورن بخطر «الشريف حسين» حاكم مناطق الحجاز وخطر زعماء آخرين متحالفين مع الحكومة البريطانية . ولهذا القدر وبما يخص السير «بيرس كوس» يمكن القول إن «كوكس» لم

يكن مستعداً أن يغامر بحياة الرسميين البريطانيين وسط المخاطر التي كانت الصحراء العربية تعج بها . والحقيقة تقال أن الصحراء العربية في ذلك الوقت كانت من أكثر مناطق العالم أمناً، لكن السير «كوس» لم يفقد الرغبة في التعامل مع «ابن سعود» وأبقى على اتصالاته والتي كانت تتم عبر «عبد اللطيف بن منديل» ممثل «ابن سعود» في البصرة . في تلك الأثناء خولت الحكومة البريطانية السير «كوكس» صلاحية الاستمرار في الخطى التي اقترحها «شكسبير» والتي جاءت كنتيجة للمناقشات التي كان قد أجراها مع «ابن سعود» . وعليه تم إرسال مسودة معاهدة صداقة إلى «ابن سعود» ليدرسها ويوقع عليها ، وفعلاً وقع «ابن سعود» عليها وأعادها إلى الحكومة البريطانية بعد أن أجرى عليها بعض التعديلات . تطلبت تلك التعديلات إجراء المزيد من المداولات والاعتبارات .

لم يتمكن السير «كوكس» من الاجتماع بـ «ابن سعود» إلا في نهاية عام ١٩١٥ في منطقة «القطيف» ، وهناك تم توقيع الاتفاقية حسب الأصول التي بموجبها اعترفت الحكومة البريطانية باستقلال «ابن سعود» وضمنت الوقوف إلى جانبه ضد أي تدخل أجنبي يطرأ على حدوده التي سيتم تعيينها وتحديدتها بعد انتهاء الحرب . أما من جهته فتعهد «ابن سعود» بأن لا يهاجم المحميات البريطانية في منطقة الخليج . هذا وتضمنت تلك الاتفاقية عبارات اعتيادية مثل منع منح ملكية الأراضي إلى أية دولة أجنبية أخرى أو ممارسة علاقات دبلوماسية مع أية قوى أجنبية مماثلة . تكشف حسن النوايا المعرب عنها في بنود الاتفاقية وبشكل مسبق عندما أقدمت الحكومة البريطانية في صيف العام المنصرم وأن قدمت لـ «ابن سعود» هدية شملت على ألف بندقية إضافة إلى عشرين ألف جنيه استرليني ، كما قدمت له تسهيلات تمكن

بموجبها من استيراد الذخيرة عبر جهوده الخاصة من البحرين . جاءت هذه المساعدات والهدايا لتسد احتياجات الحملة العسكرية التي كان «ابن سعود» يعد لها لضرب قبيلة «العجمان» المتمردة . وفي شهر أيلول من ذلك العام هجم «ابن سعود» بقواته على قبيلة «العجمان» وألحق بها هزيمة نكراء وأجبرهم على الهرب واللجوء إلى مناطق الكويت . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن السير «كوكس» كان خلال هذه المفاوضات متكتماً على موضوع كان من الممكن أن يشير جل فضول واهتمام «ابن سعود» إن لم نقل قلقه . فلم يكن بمقدوره ولأسباب واضحة أن يشير إلى المفاوضات التي تمت بين السير «هنري ماكماهون» و «الشريف حسين» أمير مكة والتي أسفرت عن الثورة العربية في حزيران عام ١٩١٦ ، إذ لم تتضمن الاتفاقية أية إشارة إلى الحدود الغربية لمملكة «ابن سعود» ، هذه نقطة سببت الكثير من المتاعب لاحقاً .

وعندما علم «ابن سعود» بخبر الثورة العربية كان قد اتخذ وتبنى موقفاً سلبياً ، لكنه لم يخفي مخاوفه من أن طموحات «الشريف حسين» ستتضارب في يوم من الأيام مع مصالحه الشخصية . لكن الحكومة البريطانية التي قررت في هذه المرحلة دعم الثورة العربية مهما بلغت التكاليف ، فوضت السير «كوكس» أن يلعب دور الوسيط في تقريب وجهات النظر بين الأطراف المختلفة في المنطقة . كما فوضته بأن يقدم ضمانات لكنها لم تفد كثيراً في تهدئة غضب «ابن سعود» أو تخفيف قلقه وتوتره . في تلك الأثناء ومع نهاية عام ١٩١٥^(*) كان الشيخ «مبارك» أمير الكويت قد فارق الحياة ، لكنه قبل موته كان غيوراً وشديداً الانتقاد لشخص يمكن أن ينظر إليه على أنه تلميذه في

(*) الصحيح أن الشيخ مبارك توفي عام ١٩١٥ م وخلفه ابنه الشيخ جابر الذي استمر في الحكم حتى عام ١٩١٧ هـ .

الأمر السياسي. كان ابنه الأكبر ووريثه في الحكم المدعو «جابر» على صداقة طيبة مع «ابن سعود»، إلا أن فترة حكمه كانت قصيرة جداً ولم يكن بالإمكان أن تصدر عنها أية نتائج ملموسة خصوصاً فيما يتعلق بالخطر المحدق بأمن «ابن سعود» والمتأصل في وجود لاجئين من قبيلة «العجمان» في المناطق الخاضعة لحكمه.

كان «سالم» الذي تولى حكم الكويت بعد وفاة شقيقه «جابر» على عدا واصل مع «ابن سعود»، ولم يحاول أن يخفي ذلك العداء، كما لم يعد «ابن سعود» في موقف يحسد عليه بسبب الصراع الدائر بينه وبين «جبل شمر» والحجاز والكويت، إضافة إلى موقف الحكومة البريطانية المتزايد في الفتور تجاهه. ولهذا عمل «ابن سعود» جاهداً لعقد لقاء آخر بينه وبين السير «كوكس»، وفعلاً تم ذلك اللقاء في «العقير» وكان المراد منه على الصعيد الظاهري مناقشة الطرق والأساليب التي تمكن «ابن سعود» من مباشرة حملته التي طال انتظارها ضد جماعة «ابن رشيد»، لكن في حقيقة الأمر كان الهدف من ذلك اللقاء ومن وجهة نظر «ابن سعود» هو أن يحظى بالمزيد من الشروحات الخاصة بالترتيبات التي تم التوصل إليها مع «الشيخ حسين» الذي بدأ يعلن أنه تلقى اعتراف رسمي بلقب «ملك العرب».

لم يكن باستطاعة السير «بيرسي كوكس» إلا أن يؤكد لابن سعود بأن استقلاله لم يكن عرضة لأي خطر، ووجه إليه الدعوة للمشاركة في حفل رسمي خاص للزعماء العرب تقرر عقده في العشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٦ بمناسبة تقليد «ابن سعود» وتقليد «جابر» الأوسمة الرسمية. وفي ذلك الحفل تم تبادل العبارات الحسية المنمقة، وتحدث السير «كوكس»

وهنا كافة الحضور على بواذر الوحدة العربية التي برزت في ذلك الوقت
 حيال الأزمة الدولية . ولم يكتب لـ «جابر» أن يعيش العمر الطويل بعد
 تسلمه ذلك الوسام . قبل «ابن سعود» دعوة السير «كوكس» لزيارة البصرة
 كضيف خاص له وبالتالي ضيفاً على القائد العام للقوات البريطانية . كانت
 تلك الزيارة أول تجربة لـ «ابن سعود» في سفره خارج الصحراء العربية ،
 حيث اندهش «ابن سعود» كثيراً لمشاهدة آليات ومكننة الحرب الحديثة في
 ذلك العصر . وربما كان مندهشاً أكثر من ذلك بحقيقة أن أكثر مستضيفيه
 ذكاً كان امرأة تدعى «جرتروود بل» . جاءت النتيجة العملية لهذه
 الاتصالات التي تمت على مدى شهر من الزمن وعلى مستوى عال أن تم عقد
 اتفاق يحصل «ابن سعود» بموجبه على مساعدة مالية تقدر بخمسة آلاف
 جنيه بريطاني شهرياً إضافة إلى أربعة مدافع وثلاثة آلاف بندقية وكميات
 كبيرة من الذخائر ، مقابل أن يبقي قوة تقدر بأربعة آلاف رجل مستعدة
 وبشكل دائم لمواجهة «ابن رشيد» ، وأن يتقدم بها لمهاجمة عاصمته «حائل» .
 لكن من المؤسف أن تفاؤل الرسميين البريطانيين بخصوص مدى دعم
 الوحدة العربية لموضوع التحالف الذي تم التوصل إليه خلال هذه الإجراءات
 لم يكن في مكانه . فخلال اثني عشر شهراً عادت الخلافات وتضارب
 المصالح الأولية تحتاح كافة الجوانب السياسية بين العرب ، وأطلقت أولى
 رصاصات الحرب التي لم تنتهي إلا بسقوط «الشريف حسين» وضم الحجاز
 والمناطق المقدسة فيه إلى الحكم السعودي .

ومنذ بداية عام ١٩١٧ وصاعداً ، وناهيك عن ضرورة صرف انتباه «ابن

سعود» عن نشاطات الحلفاء في مناطق الحجاز ، وذلك بتشجيعه في أن يتخذ إجراءً معيناً ضد «ابن رشيد» ، كان هم السير «بيرسي كوكس» بالدرجة الأولى القضاء على المواقع التركية ومنع تقدمها إلى ما وراء بلاد الشام . شجع غلاء الأسعار وندرة المواد التموينية في سوريا على وجود سوق مثالية للتهريب والمهربين فقد كان المهربون العرب يجلبون البضائع المعربة إلى دمشق من العراق ومن موانئ الخليج العربي مروراً بالصحراء العربية . كان الشيخ «سالم» أمير الكويت يتغاضى عن عمليات التهريب التي كانت تمر بأراضيه ، وكان يأخذ مقدماً ضريبة على مرورها من أراضيه وفي الوقت نفسه كان تجار «القصيم» وتجار مناطق أخرى خاضعة لحكم «ابن سعود» يحملون بضائعهم قاصدين «حائل» ومنها كانوا يرسلونها إلى الأتراك . كان من المتوقع من «ابن سعود» أن يحول ويمنع ذلك التهريب وذلك كجزء متكامل من حملته ضد «ابن رشيد» ، لكن مما لا شك في أنه كام بمقدور بعض القوافل أن تفلت من مراقبته الشديدة لحركات التهريب .

سببت العلاقات غير الودية القائمة بين الكويت والرياض قلقاً بالنسبة للمفوض البريطاني المكلف بالأمر المدنية في بغداد . وجاء ذلك القلق لأن العلاقات غير الودية أوجدت من ناحية معينة حالة عدم استقرار في المناطق الداخلية من بلاد الشام ، كما أنها من ناحية أخرى يمكن أن تكون أكثر أهمية ساهمت وسهلت حركة التهريب بين تلك المناطق . هذا وكان المفوض التركي قد وعد «ابن سعود» بأن يتخذ إجراءات ضد وجود قبيلة «العجمان» في الأراضي الكويتية ، حيث كان بإمكانها من تلك المواقع الانقضاض على قبائل «نجد» والإفلات من العقوبة .

وكان هناك أيضاً ثمة قضايا أخرى بسيطة مثل عدل ضريبة الجمارك التي

تتقاضاها الكويت وبغداد على البضاعة المتوجهة إلى «نجد»، وإمكانية ترتيب عملة معدنية بقيمة بسيطة للاستعمال اليومي من قبل أهالي البلاد. تأزمت كافة هذه الأمور في خريف عام ١٩١٧ عندما بدأ المفوض السامي في مصر السير «ريجنالد ونجت» بالضغط على «حائل» جاء ذلك في وقت كانت فيه الثورة العربية قد استنزفت بعض من قوة الزخم لديها وأصبحت مهددة بالتردي إلى حالة ركود. وحيال هذا الوضع تم إرسال الكولونيل «لونس» إلى جدة ليعيد تنشيط حركة الحياة، في حين تم إرسال ممثل آخر عن السير «ريجنالد ونجت» إلى بغداد ويدعى السيد «رونالد ستورز» الذي حظي بلقب «السير» فيما بعد. توجه هذا الأخير إلى بغداد لمناقشة الوضع العام مع «بيرسي كوكس» وهناك اقترح «كوكس» أن يقوم «ستورز» بناء على خبرته الكبيرة في الجانب الآخر من القضية بالتوجه إلى «ابن سعود» كممثل عنه ويعرض عليه موضوع تطبيق العديد من المقترحات التي تهدف (عندما يحين الوقت المناسب) إلى إزالة أسباب الخلافات بين الحليفين العربيين الرئيسيين للحكومة البريطانية.

ولسوء الحظ لم تؤت تلك الخطة العبقريّة ثمارها لأن «ستروس» سقط ضحية ضربة شمس واضطر إلى الرحيل عن الصحراء الكبرى على عجل. أصيب «كوكس» ببعض الإحباط بسبب تجربة مبعوثه الثاني إلى «ابن سعود»، لكنه لم يفقد الأمل في حل تلك المشكلة المعقدة. وبعد مشاورات طويلة عن طريق الرسائل البرقية بين بغداد والقاهرة، تقرر أن يرسل «كوكس» بعثة صغيرة إلى الرياض وأن ينضم إليها «ستروس» وهي في طريقها إلى الحجاز. لكن «الملك حسين» من البداية حال دون انضمام «ستروس» إلى البعثة ورفض تحمل أي مسؤولية تتعلق بسلامته بسبب

الأوضاع المضطربة في الصحراء .

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩١٧ وصل ممثلو «كوكس» إلى «العقير» وتابعوا المسير باتجاه الرياض ، وخلال مرورهم بواحة «الأحساء» مكثوا في ضيافة «عبد الله بن جلوي» لبضعة أيام ، ووصلوا إلى الرياض في نهاية الشهر لمناقشة كافة جوانب الوضع مع «ابن سعود» . وبعد أن تناقشوا معه وأرسلوا تقريراً عما دار بينهم إلى بغداد ، توجهوا بموافقة «ابن سعود» باتجاه الحجاز ووصلوا إلى «الطائف» دون أية مشكلات في يوم عيد ميلاد السيد المسيح . كان وصولهم مفاجئاً لـ «الملك حسين» وسبب له الكثير من السخط والانزعاج ، ووجد نفسه مجبراً على إعداد ترتيبات تتعلق باستمرار رحلتهم إلى جدة . وعقدت الآمال على أن ينضم «ستورز» إلى هذه البعثة في «جدة» إلا أن الجنرال «اللبني» كان قد استولى على القدس وعين «ستورز» أول حاكم عليها بعد سقوطها في أيدي الجيش البريطاني . وبدلاً من وصول «ستورز» إلى «جدة» وصلها القائل العسكري «هوغارث» ، وبعد ذلك بوقت قصير وصل إلى هناك أيضاً «الملك حسين» قادماً من مكة ليكون في استقبال ضيوفه القادمين من الشرق والغرب . ودارت المباحثات ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً بسبب رفض الملك حسين المطلق أن يتعامل مع «ابن سعود» على محمل الجد وخاصة في القضية التي تتعلق بملكية «الحزمة» التي سبق أن تعرضت في شهر كانون الأول (ديسمبر) لغزو إحدى الحملات من مكة والتي على إثرها ناشدت الحزمة «ابن سعود» أن يقوم بواجبه في الدفاع عن أهالي هناك . عادت البعثة إلى البصرة ومن ثم توجهت إلى «ابن سعود» ، وفي تلك الفترة كان السير «بيرسي كوكس»

قد أصبح دبلوماسياً بمنصب الوزير البريطاني في طهران ، وخلفه في منصبه في بغداد «آرنولد ولسون» ، وعلى ما يبدو لم يكن «ابن سعود» في أي مزاج يمكنه من تحمل المزيد من استفزازات «الملك حسين» بخصوص «الخزمة» التي أصبحت حجر الزاوية في موقف الحكومة البريطانية . والحقيقة أن «ابن سعود» لم يبد أي ردة فعل حيال الهجومين اللذين تعرضت لهما «الخزمة» من جهة مكة خلال صيف عام ١٩١٨ باستثناء أنه أعلن رسمياً بأنه يمكن أن يقود حملة عسكرية ضد «الشريف حسين» في حال تعرضت «الخزمة» لأي اعتداء آخر . في تلك الأثناء تكرست كافة جهود الحملة للتأثير على «ابن سعود» للقيام بإجراء ضد «حائل» ، وهو ما حدث بالفعل ، ففي آب توغل «ابن سعود» بقواته في قلب «جبل شمر» ملحقاً خسائر مادية في المناطق الأمامية الخاضعة لسيطرة «ابن رشيد» وتابعت قواته المسير إلى أن وصلت إلى أعتاب «حائل» ، وكانت «حائل» محصنة بشكل منيع ولم يكن بالإمكان مهاجمتها من دون قصفها بنيران المدافع ، ولذلك عاد «ابن سعود» إلى «بريدة» وهناك أبلغته البعثة البريطانية بأن الحكومة البريطانية لم تعد تكثر لمصير «ابن رشيد» لأن الأتراك أنفسهم كانوا قد خرجوا من دائرة الحرب . ولم تكن تلك الأخبار مفرحة بالنسبة للأمير السعودي الذي تركه البريطانيون مرة أخرى ليتصرف وفق هواه . وفي تلك الأثناء كان الحلفاء المنتصرون مشغولين بتوزيع مراكز الانتداب ، إضافة إلى معالجة مكاسب أخرى كانوا يتداولون بأمرها في مؤتمر السلام الذي بحثوا فيه أيضاً الحالة النفسية المتأزمة في العالم العربي . لكن كان لا بد لـ «ابن سعود» أن يجعل الحلفاء أو على الأقل الحكومة البريطانية مدركة للأحوال العريية ، ومرت

بضعة أشهر شهدت فيها المناطق الداخلية بعض المآسي التي أملت بـ «ابن سعود» شخصياً: فانتشرت حمى الأنفلونزا الإسبانية خلال شتاء عام ١٩١٨/١٩١٩ وراح ضحيتها ابنه الكبير «تركي» واثنين من أبنائه، إضافة إلى زوجته الأولى «جواهر».

حدث في شهر آيار (مايو) من عام ١٩١٩ أن تبخر «الملك حسين» بخيلاء أمام السعوديين الحانقين، إذ أرسل ابنه الثاني «عبد الله» على رأس حملة قوية وأمره بالاستيلاء على «الحزمة» مهما بلغ الثمن. وقد وصل «عبد الله» إلى «تربة» وأقام فيها معسكراً محصناً جلس فيه لبعض الوقت، كما نظر خلال تلك الفترة في أوضاع أهالي تلك الواحة الغير مهتمين بولائهم لوالده. وبعدها سار بقوته نحو غايته المنشودة. والتزاماً منه بالوعد الذي قطعه على نفسه بالدفاع عن أهالي «الحزمة» في حال تعرضهم لأي اعتداء، أرسل «ابن سعود» قوة قوية إليه. في تلك الأثناء سارع بعض الأشخاص الساخطين في «تربة» وأبلغوا «خالد بن لؤي» أمير «الحزمة» عن حقيقة الأوضاع في معسكر «عبد الله». وفي سديم الليل قام الإخوان المتعصبون بمهاجمة معسكر «عبد الله» من كافة الاتجاهات وفي آن واحد، وشرعوا في قتل المدافعين عن المعسكر، وتمكن «عبد الله» ومن معه من القادة من الهرب على ظهور الخيل عند سماعهم أول دلائل تلك الغارة. كما فر أيضاً بعض المحاربين من البدو الذين كانوا قد رافقوا حملة «عبد الله» وتمركزوا على طول تحصينات المعسكر. وعليه أصيب قوات «عبد الله» بانھیار تام واستولت القوات السعودية على كافة المدافع والبنادق والذخائر التي كانت بحوزة قوات «عبد الله». وبعد يوم أو يومين وصل «ابن سعود» إلى مسرح

أحداث المعركة وتوج ذلك الانتصار بأن ضم تلك الواحة إلى حدود مملكته .
ويذكر لـ «الملك حسين» أنه في بداية ذلك العام كان قد اطلع الحكومة البريطانية على نيه في احتلال «الخرمه» وطلب منها أن تبارك حملته تلك .
وفي منتصف شهر آذار عقد اللورد «كرزون» مؤتمراً لقادة المناطق لمناقشة تلك المسألة ، وقرر المؤتمرون بالإجماع أنه نظراً لأن جيش «الشريف» كان مدرباً تدريباً جيداً ومعه أفضل المعدات ، فيمكن أن يكون بإمكانه وبسهولة إلحاق الهزيمة بالقوات السعودية بغض النظر عن مدى تعصبهم الديني . علاوة على ذلك رأوا أنه إذا تم إنجاز ذلك النصر دون المخاطرة في تورط الحكومة البريطانية بمناوشات عسكرية في الصحراء العربية ، ستقرر أن تكون واحة «الحزمة» جزءاً من مملكة الحجاز ، فإن السياسة البريطانية المستقرة الداعمة لقضية الشريف حسين ستسمح للشريف حسين باتخاذ الخطوات الضرورية ليؤكد على حقه في ضم وحكم «الحزمة» . كما تقرر إبلاغ «ابن سعود» بالقرار الذي تم التوصل إليه وتحذيره من ضرورة الإحجام عن التدخل في تلك المسألة معرضاً نفسه لخسارة المعونة البريطانية المالية الشهرية التي تقدر بخمسة آلاف جنيه استرليني . وكما شاهدنا ، تجاهل «ابن سعود» ذلك التهديد ، وحشد قوات جيشه من الإخوان وانطلق بها لنجدة أهالي «الحزمة» . وفي الوقت الذي وصل فيه «ابن سعود» إلى آبار «السخا» كان طابور متقدم من قوات جيش ابن سعود قد محق تماماً كامل جيش «عبد الله» .
أما وقد وقع الفأس في الرأس وإن ما حدث سيسفر عن متاعب جسيمة ، فقد استدعى اللورد «كرزون» مجدداً أعضاء لجنته المشرفة على الأمور الإدارية لمناقشة نتيجة القرار السابق . وفي تلك الأثناء قام أحد الضباط

المتحمسين بإبراق الأوامر المتعلقة بقرار الحكومة البريطانية إيقاف المساعدات المالية عن «ابن سعود» وإيصالها إلى السير «آرنولد ولسون». نقل تلك البرقية إليه ساعي البريد الذي كان خارجاً للتجول بسيارته، وألقى «آرنولد» نظرة على فحوى البرقية ودسها في جيبه ولم يكثر لمحتواها. أما بخصوص لجنة اللورد «كورزون» فقد خيم على اجتماعها شعور بالراحة والاطمئنان لأن شيئاً ما قد تم إجراؤه ليصون شرف السيادة البريطانية وليبين لـ «ابن سعود» أنه لا يمكن له أن يتجاهل أو يهمل رغبات وتحذيرات حكومة صاحبة الجلالة. لكن تلك اللجنة اجتمعت لمناقشة قضايا أكثر أهمية من تلك، إذ إن السلطات البريطانية في «جدة» كانت قد أرسلت تقارير مفادها أن الذعر دب في منطقتي «مكة» و«جدة» بسبب أخبار وصول قوات «ابن سعود»، وأن آلاف الحجاج قد لجأوا إلى الميناء. والجدير بالذكر أن حوالي أحد عشر ألف حاج من هؤلاء الحجاج هم أصلاً من مناطق خاضعة للحكم البريطاني، وأنه لا يمكن تجاهل مصيرهم دون إلحاق الإساءة بشرف الحكومة البريطانية، وعليه كان هناك حاجة إلى إحدى عشر سفينة لنقلهم إلى بر الأمان، ولكن نظراً لندرة السفن في تلك الأوقات أرسلت تعليمات مشددة إلى الأدميرالية البحرية بضرورة تقييد كافة السفن بتلك الغاية. وذكر مسؤول مكتب الحرية البريطانية أنه لم تكن هناك قوات بريطانية لتدافع عن اللاجئين. لقي الاقتراح القائل بأن «ابن سعود» لن يتقدم باتجاه «جدة» أو باتجاه مكة استهجاناً، ونظر إليه بازدراء، كما أن التقارير الواردة من مكان الحدث لم تدعم صحة تلك المقولة، وبدا الوضع وكأنه معقداً للغاية ولا مجال إلى حله، لكن البريطانيين أرسلوا جواً مبعوثاً إلى «ابن سعود» ليهدي

من غضبه وليحول تفكيره - إذا أمكن - عن نيته في احتلال الحجاز ، وفي الوقت نفسه تم إرسال ست طائرات مجهزة لقصف القوات السعودية إذا استدعت الحاجة ، لكن تلك الطائرات لم تستخدم قذائفها وتم إبلاغ المبعوث الذي وصل إلى مقر قيادة الجنرال «البنّي» (الذي كان في وقتها القائد العام للقوات البريطانية) بأن «ابن سعود» قد سحب قوات جيشه المنتصر من «تربة» وعاد بها إلى الرياض ، وأن ما فعله «ابن سعود» كان مجرد ضم «تربة» إلى مملكته .

وجهت اللجنة الدعوة إلى «ابن سعود» بأن يرسل ممثلاً عنه إلى «لندن» لمناقشة كافة جوانب الوضع الراهن . وفي شتاء عام ١٩١٩ أرسل بعثة تمثله إلى هناك برئاسة الأمير «فيصل» بن عبد العزيز الذي كان في ذلك الوقت ابن أربعة عشر عاماً ، وقد أحدثت تلك الزيارة (في لندن وفي أماكن أخرى) ردود فعل قوية ، وأوقعت في الأوساط الحكومية البريطانية تأثيراً قوياً ، وتم الافتراض ضمناً بأن قضية «الخرمة» قد سويت بسبب ضم «تربة» إلى مملكة ابن سعود إضافة إلى حقائق أخرى . كما افترضت الحكومة البريطانية أيضاً بأن المساعدات المالية البريطانية لـ «ابن سعود» أصبحت معلقة أو معطلة منذ شهر آيار الماضي ، وأنه لا مجال لإعادتها دون تعويض أو مقابل . لكن ظهرت أمام اللجنة الإدارية مفاجأة لكنها لم تكن سارة ، إذ تم الاعتراض والارتباك في البيان المتعلق بتوقيف المساعدة المالية ، لكن السلطات الرسمية البريطانية أكدت ذلك البيان رسمياً وبشكل غير مقيد أو مشروط . سبب ذلك الموقف إحساساً مثيراً بعض الشيء لكن لم يعد الآن شك بخصوص توقف المساعدات المالية ، وتم أيضاً مناقشة قضايا أخرى ذات اهتمام متبادل وعاد

الوفد في الوقت المناسب إلى الصحراء العربية (الرياض).

كان الوضع في العراق يزداد حساسية لأن الشريف فيصل الذي كان في ذلك الوقت ملكاً على سوريا، كان يعمل بسرية وبشكل حثيث على تقويض الترتيبات الإمبريالية البريطانية والتي كان «آرنولد ولسون» بدوره يذكي نارها في مناطق بلاد الشام على نطاق واسع وملحوظ. ففي أوائل عام ١٩٢٠ اندلعت شرارة التمرد وأصبحت السياسة البريطانية في كافة أنحاء المنطقة قيد نقد ومساءلة. وأخيراً قررت الحكومة البريطانية استدعاء السيد «بيرسي كوكس» من «طهران» لمناقشة احتمال تطبيق سياسة لبرالية في «العراق»، وبصفته المندوب السامي البريطاني فقد أوكلت إليه مهمة تطبيق هذه السياسة. سمحت الرحلة البحرية إلى «البصرة» للسيد «كوكس» بأن يجدد اتصالاته مع «ابن سعود» الذي قدم بدوره للقاءه في منطقة «العقير». كانت النقطة الرئيسية التي شغلت تفكير «ابن سعود» هي الإشاعة التي أفادت عن نية الحكومة البريطانية عرض تاج حكومة العراق على «الشريف فيصل» الذي خسر - في تلك المرحلة من تطور الأحداث - حكمه على سوريا بسبب الصعاب التي واجهها مع الفرنسيين والتي نجمت عن معركة العرب ضد الفرنسيين في موقعة «ميسلون» في شهر تموز (يوليو) عام ١٩٢٠. وكان بإمكان «كوكس» أن يقلل من قلق «ابن سعود» بخصوص تلك المسألة طالما أنه تقرر بشكل قاطع أنه لم يتم اتخاذ إجراء نهائي بخصوص الوضع في العراق إلا بعد أن يتمكن من دراسة الوضع وإرسال تقرير عن وجهات نظره وتوصياته بذلك الخصوص. تصادف أن «كوكس» في تلك الفترة لم يؤيد فكرة أن يتولى الشخص الذي رشحه «لورنس» مهمة

إدارة البلاد، والذي كان إلى حد ما مسؤولاً عن حركة التمرد. وتمت أيضاً مناقشة البنود العامة لموضوع «ابن رشيد» لكن كان من الواضح أن السيد «كوكس» كان ينظر إلى «ابن رشيد» على أنه عامل مفيد في حفظ توازن القوى في الصحراء العربية، ومما لا شك فيه أن «ابن سعود» خلص إلى نتيجة مفادها أن منافسه القديم حاكم منطقة «جبل شمر» يمكن أن يتحدى مكانته الشخصية بتشجيع من الحكومة البريطانية. والجدير بالذكر هنا أن المبعوث الخاص لـ «ابن رشيد» كان في تلك الفترة موجوداً في بغداد ليجري مفاوضات مع «جيرترود بل».

لذا قرر «ابن سعود» أنه يتوجب عليه أن يحمي نفسه من أعدائه الحقيقيين الذين شكلوا طوقاً حول حدود مملكته الشمالية، وعلى أي حال بادر بإرسال الأمير الشاب «فيصل» على رأس قوة كبيرة ليحتل مرتفعات عسير والواحات التي في أطراف ذلك الإقليم باتجاه الصحراء. وكان غايته من ذلك الإجراء هو تعزيز المكاسب التي حققها من الاستيلاء على «الحزمة» و «تربة» واللتان امتد خط دفاعهما ضد أي اعتداء محتمل من الغرب عبر «رنية» و «بيشة» باتجاه «خميس مشيط» و «أبها». ومن هناك كان «ابن سعود» في موقف يمكنه من السيطرة على كافة القبائل التي تعيش في المرتفعات وصولاً حتى حدود إقليم «الطائف».

قدم هذا التحرك لـ «ابن سعود» حرجاً ارتكاز لا غنى عنه لتحقيق طموحاته التي بدأ فعلاً في بلورتها في ذهنه. حدث خلال عام ١٩٢٠ أن قام «عبد الله بن طلال» (أحد أبناء عمومة «ابن رشيد») بأن أطلق النار على «سعود بن رشيد» خلال إحدى النزعات، وعلى الفور قام عبيد المغدور بقتل

القاتل ، كما تمكن «عبد الله بن متعب» أخو المغدور من الظفر بالسلطة بعد أن تمكن من إيداع «محمد بن طلال» السجن . والجدير بالذكر هنا أن «عبد الله بن متعب» هو حفيد «عبد العزيز بن متعب بن رشيد» وهو العدو القديم لـ «ابن سعود» ، وها هو قد اعتلى سدة الحكم بعد اغتيال «سعود بن رشيد» .

ظهر ضعف شخصيته كحاكم وانعكس في الضعف العام الذي ألم بمنطقته ، وبدأت عناصر من جماعة الشريف تتقرب منه بشكل ملحوظ ، وزداد توددها له عندما بدأ القدر يلوح باحتمال أن يتولى الشريف «فيصل» منصب ملك العراق . لم يكن بإمكان «ابن سعود» أن يتوانى أو يضيع الوقت سدى فيما يتعلق بالوضع في «حائل» ، إذ إن سيطرته على «حائل» يمكن أن تجعل منه سيداً على كافة مناطق الصحراء العربية ، كما أن سيطرة أي فرد من جماعة الشريف يمكن أن تعرض موقفه للخطر إلى أبعد الحدود . ففي ربيع عام ١٩٢١ أرسل «ابن سعود» أخاه «محمد» على رأس قوة عسكرية باتجاه الشمال ، وفي الوقت نفسه أرسل «فيصل الدويش» على رأس قوة محاربة من الإخوان لدعمه من جهة الشرق ، وساعد «نوري الشعلان» من قبيلة «الرولة» في سوريا بأن مارس الضغط على مناطق واحات «الجوف» .

اتسمت هذه العمليات بسمة جس النبض ، وجاءت في وقت كان فيه السيد «ونستون تشرشل» يعقد مؤتمره الشهير في القاهرة ليقرر مستقبل شكل الشرق الأوسط . وكان القرار الرئيسي لذلك المؤتمر هو وجوب أن يعين «فيصل» ملكاً على العراق . في تلك الأثناء وصل الشريف «عبد الله» من مكة إلى عمان على رأس قوة كبيرة ليفسد جو المؤتمرين وليعلن عن نواياه في مهاجمة الفرنسيين في سوريا .

هذا واقتدي الشريف «عبد الله» من مغامرته غير المناسبة تلك بأن عرضت عليه إمارة عبر شرق الأردن . ولم تترك تلك الحقيقة التي تضافرت مع الخبر المؤكد بأن أخو الشريف «عبد الله» سيعين حاكماً على بغداد مجالاً أمام «ابن سعود» أن يعيد النظر في الأمور ، فأخذ ينظر بجدية بالغة إلى حملته الموجهة ضد «حائل» ، لذا ترأس الحملة بنفسه وقادها باتجاه «حائل» التي وصلها في فصل الخريف أي بعد فترة وجيزة من تتويج «فيصل» ملكاً على بغداد . رفض وفد من «حائل» كان قد توجه إلى معسكر «ابن سعود» النزول عند مطلب وإصرار «ابن سعود» القاضي بأن تتنازل عائلة «آل رشيد» الحاكمة عن الحكم ، وعندما أبلغ «عبد الله بن متعب» بمطلب «ابن سعود» رفضه أيضاً وأصبحت يدا «ابن رشيد» مكبلتين . ولتتعامل مع الوضع الملح في الشمال حيث كانت منطقة «الجوف» على حافة خطر السقوط في يد «نوري الشعلان» ، توجب أن يطلق سراح «محمد بن طلال» من السجن ليقود قوة عسكرية لتخفيف الضغط على «الجوف» . وعند عودة «محمد بن طلال» إلى «حائل» قام بانتفاضة ضد ابن عمه الضعيف والمتأرجح الذي لاذ (في لحظة لم يتمكن فيها من ضبط نفسه) إلى حماية «ابن سعود» وبقي ضيف شرف على «ابن سعود» في الرياض إلى أن وافته المنية عام ١٩٤٧ .

يبدو أن «ابن سعود» كان قد عاد إلى الرياض قبل تطور هذه الأحداث ، إلا أن التصرف العنيف والعدواني الصادر عن الأمير الجديد «محمد بن طلال» والذي كان قد بدأ في اعتداءاته على القوات السعودية التي كانت تطوق «حائل» على بعد مسافة ملحوظة أجبره على استئناف المبادرة التي بدأ

بها . وعليه وصل «ابن سعود» في الثامن من شهر أيلول إلى «بقعاء» الواقعة إلى الشرق من «حائل» ، وصادف وصوله بعد أن كان «فيصل الدويش» وفرقته من الإخوان قد دحروا هجوماً قام به «محمد» الذي كانت قواته الرئيسية تتمركز في تلك المنطقة . هذا واعتمد «محمد» على أسوار حائل وتحصيناتها ليصد أي عدو يحاول الهجوم عليه ويبقيه على بعد مسافة منه أعد «ابن سعود» هجوماً على مواقع «محمد» في «بقعاء» وعززه بقوة ضاربة ، وسقطت القلاع واحدة تلو الأخرى وهرب «محمد» إلى «حائل» عن طريق جبل «أجا» ، فلا بد وأن أدرك الأمور لم تكن تسير لصالحه ، وعليه عرض على «ابن سعود» أن يستسلم شريطة أن يبقى أميراً على «جبل شمر» تحت مظلة سيادة «ابن سعود» . لكن «ابن سعود» لم يقبل هذا الشرط وأعد ترتيباته لفرض الحصار عليه ، وجلب كل مدافعه لقصف المدينة ، وبناءً على طلب بعض المتنفذين والوجهاء من الأهالي وافق «ابن سعود» على إيقاف القصف لفترة معقولة من الوقت ، وذلك ليتمكنوا من ترتيب استسلام المدينة سليماً . وأثناء تلك الفترة أرسل «محمد بن طلال» مناشدة بالشفقة يطلب مساعدة كلاً من السلطات البريطانية في العراق والملك «فيصل» الشريف ، وبعد مرور بضعة أسابيع من الصبر أرسل «ابن سعود» إنذاراً أخيراً إلى أصدقائه في المدينة أعلن فيه عن نيته معاودة القصف إذا لم تستسلم المدينة خلال ثلاثة أيام . كانت تلك الفترة كافية للجميع باستثناء «محمد» الذي أغلق أبواب القلعة ليقاوم حتى آخر رفق ، وفتحت أبواب المدينة أمام قوات «ابن سعود» في الثاني من شهر تشرين الثاني عام ١٩٢١ .

وسرعان ما مال «محمد» إلى الاستسلام مقابل ضمان سلامته

الشخصية، ومن ثم توجه إلى الرياض وعاش هناك مكرماً مرتاحاً، ومع مرور الأيام زوج ابنته للملك العظيم الذي سبق أن أطفأ نور أسرته الحاكمة بعد ولاية دامت لمدة تسعين سنة تقريباً بدأت من عام ١٨٣٤ حين ارتقى جده سدة الحكم على إمارة «حائل». هذا وقام أحد عبيد «محمد بن طلال» وبالتحديد في الرياض خلال شهر شباط عام ١٩٥٤ باغتيال «محمد بن طلال» نفسه.

كان «ابن سعود» قبل الشروع في حملة «حائل» هذه قد عقد مؤتمراً لرؤساء القبائل ووجهاء علماء الدين في الرياض لمناقشة الحالة التي كانت تعاني منها البلاد، وقد وافق المؤتمر على اقتراح «ابن سعود» القائل بأنه من أجل إعطاء «نجد» وضعية دولية مساوية لوضعية ومكانة جيرانها، يجب أن يحظى «ابن سعود» بلقب سلطان «نجد» وتوابعها. وصل هذا القرار عبر القنوات المرعية إلى المفوض السامي في بغداد، وعندما حان الوقت المناسب اعترفت الحكومة البريطانية به. عزز التخلص من «حائل» الوضع الجديد لـ «ابن سعود» الذي بدأ يتمتع به، كما أزال عنه كل إحساس بالتوتر المتعلق بأي تدخل محتمل من قبل الأشراف على أمور «نجد» الداخلية. ذلك التدخل الذي يمكن أن يقوم به هؤلاء الأشراف في المناطق المحيطة بنجد، سواء بتشجيع أو بعدم تشجيع من الحكومة البريطانية، وأصبح «ابن سعود» الآن في موقف يمكنه من تنفيذ الخطوة التالية في برنامجه والتي تصور من خلالها توسيع سيادته بشكل فعال لتشمل حدود معقولة من الصحراء العربية.

وعليه قام «ابن سعود» في عام ١٩٢٢ بدفع قواته من باتجاه «الجوف»

ومناطق وادي سرحان ، والتي كانت تشكل حتى أواخر عام ١٩٢٠ جزءاً مكماً لإمارة «جبل شمر» ، علماً بأن مقتل «سعود بن رشيد» وانهيار سلطة «آل رشيد» بسبب ذلك الاغتيال كانا قد أغريا «نوري الشعلان» زعيم قبيلة «الرولة» على احتلال هذه الأصقاع بتشجيع من الشريف «عبد الله» حاكم مناطق الأردن ، مع إذعان وموافقة السلطات البريطانية على ذلك . والجدير بالذكر أن السلطات البريطانية كانت في تلك الفترة مهتمة بفكرة إنشاء خط سكة حديد استراتيجي يربط بين العقبة وبغداد ، وبتشجيع ودعم فعال من قبل «أحمد بن مويشر» وبعض الوجهاء المحليين الذين كانوا قد تبنا الدعوة السلفية ، تمكنت قوات «ابن سعود» من تثبيت أقدامها في جزء من إقليم «سكاكا» ، وعليه أرسلت خلال شهر آب فرقة عبر الأراضي الأردنية لجس النبض وتوغلت حتى وصلت إلى منطقة سكة الحديد وقتلت سكان قرية «زيزة» القريبة من هناك ، إلا أن قوات سلاح الجو الملكي المدرعة إضافة إلى بعض الطائرات التي قدمت من عمّان تمكنت من طرد هذه الفرقة خارج حدود الأردن وأنزلت بها خلال هربها المضطرب خسائر فادحة . وفي فصل الخريف من ذلك العام هاجم الإخوان قبيلة «الرولة» في «المنوة» الواقعة في مقاطعة قرى «السلط» والمتمركزة حول قرية «كاف» ، ولم يكن بإمكان قبيلة «الرولة» من دون مساعدة أحد أن يصمدوا أمام قوة «ابن سعود» العاتية . وعندما وصلت القوة الرئيسية لجيش «ابن سعود» إلى «الجوف» سارع الأهالي هناك إلى الاستسلام دون أية جلبة وتخلوا عن ولائهم لـ «نوري الشعلان» . وعليه قبلت البلدان الواقعة في وادي سرحان الحكم الجديد بوصفه نتيجة طبيعية أو منطقية حتمية . في تلك الأثناء كانت القوات

السعودية المقاتلة قد احتلت أيضاً واحات «خير» و«تيماء» القريبة من حدود الحجاز والخاضعة لسلطة «حائل» منذ أيام «محمد ابن رشيد». وفي نهاية عام ١٩٢٢ كان «ابن سعود» قد احتل كافة واحات صحراء شبه الجزيرة العربية، وذلك من الحدود المتاخمة للهلال الخصيب حتى الربع الخالي إضافة إلى طوق من المناطق الخاضعة لحكم الأشراف حول الحد الشمالي من مملكته. تظاهرت ظواهر عدة مثل عداء الملك «حسين» المكشوف وعداء أبنائه المبطن والمتحفظ في العراق ومناطق الأردن (والتي كانت آنذاك تحت الوصاية البريطانية) علاوة على طموحات «ابن سعود» جميعها تضافرت لتفجر الوضع على نحو لم يعد بإمكان الحكومة البريطانية أن تتجاهله.

ومع حلول نهاية عام ١٩٢١ تمكن السير «بيرسي كوكس» من إغراء السلطان عبدالعزيز بإرسال بعثة إلى بغداد لمناقشة مشكلات الحدود. والجدير بالذكر أنه لا يمكن اتهام «كوكس» بأن لديه مشاعر عدائية تجاه «ابن سعود»، علماً بأنه كان مهتماً بالدرجة الأولى بأمن ورخاء العراق. لقد تم وبسهولة تسوية مشكلة الكويت، كما تم ترتيب وتحديد حدودها مع سلطنة نجد إضافة إلى إقرار منطقة محايدة لتقف في وجه أية مشكلات قد تحدث بشكل عرضي. وبعد محاولة عنيفة ثم إقناع أو البعثة السعودية على توقيع «معاهدة المحمرة» التي تحدت بموجبها الحدود بين «نجد» و«العراق». رفض «ابن سعود» الاعتراف بتوقيع ممثلة على تلك المعاهدة بحجة أنه تجاوز التعليمات الصادرة إليه وقال بأنه لا يوافق على الحدود المقترحة بدعوى أنها لا تشتمل على فقرة تخول قبائل نجد في المناطق التي أعطيت للعراق في ممارسة حقهم الموغل في القدم في الرعي هناك. وعليه اقترح «ابن سعود»

إعادة النظر في كافة المسألة عن طريق إجراء محادثات شخصية بينه وبين السير «بيرسي كوكس»، ووجه إليه الدعوة ليقابله في «العقير» خلال فصل شتاء عام ١٩٢٢/١٩٢٣ وقبل «كوكس» الدعوة، وفي الوقت الذي تمت فيه المقابلة كان «ابن سعود» قد بلغ ذروة سلطانه وملأت سمعته أرجاء الصحراء العربية كحاكم على كافة مناطقها. كان «ابن سعود» بأي حال من الأحوال متيماً أو مفتوناً بتصور السير «كوكس» عن حدوث ثابتة نظراً للوضع البدوي التقليدي في المنطقة المعنية. تمكن «كوكس» في نهاية المطاف من تمرير مراده عن طريق تقديم تنازلات جوهرية بخصوص هذه المسألة، وتم الاتفاق بموجب بروتوكول «العقير» على أن يفهم مع اتفاقية «المحمرة» بأنه من أجل التمكن من الوصول إلى آبار ومراعي المنطقة المعتبرة ملكاً لكلا الطرفين، لا يحق لأي طرف أن يقوم ببناء قلاع أو أبنية دائمة ضمن مسافة معينة بعيدة عن الحدود أو داخل منطقة محايدة متفق عليها.

إن ما جاء بمثابة انتصار لمهارة السير «بيرسي كوكس» الدبلوماسية هو الخط الحدودي المحدد الذي يحمي العراق والكويت من أي اعتداء يمكن أن تقوم به القوات السعودية، ذلك إضافة إلى انتصاره في تأمين الحماية لدول خليجية أخرى من تدخل «ابن سعود» في شؤونها، وتم ذلك عن طريق توقيع معاهدة خاصة بذلك الفرض. لكن كان لـ «ابن سعود» يشعر بإحساس بالأسى، بمعنى أنه لم يتم النظر في اهتماماته ومصالحه في المناطق الغربية والشمالية حيث كانت له مطالب وأوضاع هامة بخصوص مناطق لا بد من تثبيت حقه فيها أو التوصل إلى تسوية بخصوصها. غير أن تغير الظروف والأحوال كان للحد الفعال من طموحاته في المناطق الشرقية دور

في تحويل اهتماماته نحو توجهات أخرى . وفي عام ١٩٢٣ وجدت الحكومة البريطانية نفسها مضطرة إلى تدارك الاحتمالات الخطرة لمثل ذلك الظرف ، وبالتحديد فيما يتعلق بمناطق عبر الأردن حيث تكرر وقوع الأحداث بسبب غياب النقاط الحدودية الواضحة هناك . كانت الحجاز أيضاً بمثابة مسؤولية أدبية أو التزام أدبي بالنسبة لحكومة جلالة الملك ، علماً بأن اهتمامها بالملك «حسين» وبطموحاته التي لا حدود لها كانت قد بدأت تذبل وتلاشى منذ تاريخ ١٩٢١ عندما لم يلقى أذنًا صاغية لجهود «لورنس» المقنعة والرامية في ذلك الوقت إلى حمله على التصديق على السياسة البريطانية في فلسطين . نادراً ما كانت الحكومة البريطانية ترحب بطموحات إقليمية متعلقة بآماكن المسلمين المقدسة في الحجاز ، ومما كان مشكوك فيه هو إمكانية إقامة بريطانيا لتأثير سياسي فعال في وجه سلوك الملك «حسين» الذي أصبح في تلك الفترة متعتاً ومتصلباً ، لكن الحكومة البريطانية في تلك الفترة كانت قد حصلت (من أبناء الملك «حسين») على ما أرادته من منطقة الهلال الخصيب ، وأصبح من الممكن النظر إلى المساعدات السنوية التي تقدمها الحكومة البريطانية إلى الدول العربية على أنها أمور ردع لأي عمل عدائي يمكن أن تقوم أية دولة من هذه الدول . على أي حال لم يكن بالإمكان التوقع لهذه المساعدات المالية أن تستمر إلى الأبد ، وكان من المهم تأمين تسوية سياسية شاملة لكافة المشكلات العربية بالسرعة الممكنة .

وحيال هذه الظروف اقترحت الحكومة البريطانية إمكانية عقد مؤتمر في الكويت خلال شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٢٣ على أن يرأسه مسؤول بريطاني رفيع المستوى ذو خبرة طويلة في الأمور القانونية وكان

المسؤول الذي تم اختياره هو الكولونيل «إس جي نو كس» الذي سبق له أن خدم في الكويت ومسقط والعراق . هذا ويمكن أن تمثل وفود معتمدة كافة الجهات المهمة بهذا المؤتمر . وقد وافق العراق و «ابن سعود» على الفكرة دون تردد أو شروط مسبقة ، ومما تجدر الإشارة إليه بشكل عابر هنا أنه في بداية هذا العام كان «ابن سعود» يدرس اقتراحاً تقدم به السير «كو كس» مفاده تقديم امتيازات نفطية تشمل كل مناطق شرقي الصحراء العربية لشركة «إيسترن جنرال سنديكيت» البريطانية مقابل أجرة سنوية رمزية تصل إلى ألفي جنيه إنجليزي . اعترض الملك «حسين» على المؤتمر المقترح لكونه غير ضروري من حيث المبدأ ، ولأن فحوى وجدوى القضايا التي ستناقش في المؤتمر كانت بديهية لأي عاقل . ورفض الأمير «عبد الله» أن يرسل أي وفد إلى المؤتمر ما لم يرسل والده أولاً وفداً من قبله . وبعد جدال طويل أخذ المؤتمر - من قريب أو من بعيد - شكلاً تمثيلاً ، وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت بشكل مسبق أنها ستوقف كافة المساعدات المالية التي تقدمها للدول العربية اعتباراً من الحادي والثلاثين من شهر آذار عام ١٩٢٤ ، كما أعلنت أنها ستدفع مقدماً كافة المبالغ المستحقة عليها حين ذلك التاريخ .

وفعلاً كان ذلك ما فعلته الحكومة البريطانية ، واجتمعت الوفود العربية وسط جو مريح وشعرت بأنها لن تخسر شيئاً بسبب عنادها وتصلب موقفها ، لكن الحكومة البريطانية هي الجهة التي أفسدت برنامج المؤتمر قبل البدء في اللعبة ، كان كبار الرسميين البريطانيين قد أطلعوا رئيس المؤتمر البريطاني عن النتائج المتوقعة للمؤتمر ، والتي استشفوا نتيجة المداولات التي أجروها مع الوفود ، وكانت إحدى هذه التوقعات كافية بحد ذاتها لتؤكد أن

المؤتمر لن يسفر عن أية نتائج . وفي حقيقة الأمر طلبت الحكومة البريطانية وبإصرار من «ابن سعود» أن يتخلى عن «الحرمة» و «تربة» ويقدمهم للملك «حسين» مقابل تنازل «حسين» عن وادي «السرхан» وقرى «السلط» التي كان «ابن سعود» قد سيطر عليهما منذ أن احتل «الجوف» ، إذ كان بإمكان قواته أن تدخلهما وتحتلهما في أي وقت يشاء . تلاشت وقائع ذلك المؤتمر على امتداد فترة ستة أشهر . لذا قرر الملك «حسين» أن يظهر مدى سلطته على أبنائه فحدث في شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٤ أن قدم بنفسه إلى مناطق عبر الأردن متظاهراً بأنه استعداد أمر تسيير الأمور ، وحضر إلى هناك أولاده الثلاثة صاغرين . لكن ذلك الحدث كما أذهل أدخل الرهبة في قلب «هيربرت صامويل» المفوض السامي البريطاني على فلسطين ومناطق عبر الأردن ، وفي الوقت نفسه تضايق من ذلك الإجراء بحد ذاته .

وعليه عين الملك «حسين» أكبر أبنائه الشريف «علي» مشرفاً على خط سكة حديد الحجاز ، وزوده بتعليمات طلب منه فيها أن يعيد كامل الاتصالات مع «المدينة» ، وكان ينظر بشكل جدي أيضاً إلى تعيين ابنه «علي» مكان ابنه «عبد الله» كأمر على مناطق عبر الأردن . في الوقت الذي كان في الملك «حسين» يدرس هذا الموضوع حدثت حادثة غيرت مجرى تاريخ الصحراء العربية : كان الدكتاتور التركي «مصطفى كمال باشا- اتاتورك» قد رأى أن الوقت كان مناسباً لإلغاء المنصب التاريخي للخلافة الإسلامية ، وعليه أطاح بآخر الخلفاء العثمانيين المدعو «عبد المجيد خان» . والجدير بالذكر أنه بعد أن تم القضاء على الحكم السلطاني العثماني سمح للخليفة «عبد المجيد خان» بأن يحتفظ بمكانته الدينية . بينما أقام الحسين حتفلاً مهيباً

توج نفسه فيه على أنه خليفة المسلمين ، وبعد ذلك وعندما كان في انتظار أن يبايعه أهالي العراق ومناطق عبر الأردن ومناطق أخرى من الهلال الخصيب على الخلافة أعد الملك «حسين» ترتيبات طارئة للعودة إلى مكة ، وعليه تم مؤقتاً تخليص مناطق عبر الأردن وكذلك الأمير «عبد الله» من شر وبلاء كان على وشك أن يحقق بهم . وضعت الحكومة البريطانية نهاية لترتيبات وإجراءات مؤتمر الكويت التي كانت أصلاً في حالة سبات واحتضار .

أصبحت الحالة مهيأة لمأساة قادمة ارتفع عنها الستار بعد أقل من ستة أشهر إثر انهيار محادثات الكويت وبالتحديد في الثالث من شهر أيلول عندما حدثت معركة «الطائف» : كان «ابن سعود» قد أمضى فصل الصيف في الإعداد لتسوية نهائية مع ملك الحجاز الذي أسفر اغتصابه للخلافة عن وجود مبرر لإعلان الجهاد المقدس وعليه استدعى «ابن سعود» كافة القوات التي كانت تحت تصرفه . أمر «ابن سعود» أن تنتشر قوة على طول الحدود المتاخمة للعراق ، وكان القصد من ذلك جس النبض واستعراض القوة لردع أي عمل يمكن أن يفكر الملك «فيصل» القيام به . ولم تقع أية حادثة تذكر ، كما أن القوات السعودية لم تعبر الحدود إلى داخل العراق . وأرسل «ابن سعود» قوة أخرى من الإخوان باتجاه الشمال تقدر بألف رجل ، وتوغلت تلك القوة داخل مناطق عبر الأردن وأقدمت على مهاجمة سكان إحدى القرى القريبة من خط سكة الحديد ، لكن سلاح الجو الملكي أحبط تلك القوة وأجبرها على التراجع . وما أن بدأ العالم ينظر في مضاعفات تلك النشاطات حتى وصلته تقارير عن سقوط «الطائف» .

قاد زعيم قبيلة «الغطط» الشرس والمدعو «سلطان بن بجاد» قواته

المشكلة من الإخوان فقط وعبر بها مناطق الصحراء ، وخلال مسيرته وصل إلى عاصمة الحجاز الصيفية وهناك كان الشريف «علي» معسكراً على رأس قوات حجازية . وعملياً لم يبد الشريف «علي» أية مقاومة أو تصدي لقوات الإخوان ، إذ هرب بجيشه باتجاه «الهدا» وهو جرف يطل على سهول المرتفعات المكية . وهربت مع قوات الشريف «علي» أيضاً آلاف من أهالي منطقة «الطائف» ومن الناس المصطافين هناك الذين خافوا من مجابهة القوات السعودية . قامت بعض القوات السعودية بمطاردة القوات المنسحبة ومطاردة اللاجئين معهم ، وهاجموا كافة الشاردين واستمروا في الضغط على قوات الشريف «علي» ، ودارت بينهم معركة في مناطق «الهدا» ومن هناك هربت قوات الشريف مجدداً في حالة فوضى وأخذت تتراكم فوق منحدرات الجبال باضطراب ملحوظ . قلب الشريف «علي» الأمر في تعقل وحذر محاولاً الاستفادة مما تبقى من شجاعته ، وقرر التوجه إلى «جدة» عن طريق مكة ليتجنب مواجهة أبيه الذي كان يتطاير غضباً .

واصل «سلطان بن بجاد» مع ما تبقى معه من قوة الضغط على أهالي الطائف ، حيث قتل من قاوم وفي واقع الأمر لم يزد عدد الذين قتلوا على ثلاثمائة رجل بمن فيهم أولئك الذين ماتوا أو سقطوا خلال هروبهم من «الهدا» ، لكن ذلك العدد كان كافياً لإحداث الذعر في كافة أرجاء مكة وجدة ، إلا أن أوامر «ابن سعود» العاجلة التي وصلت إلى هذا القائد المندفع أبقت على حياة ما تبقى من الناس ، كما طلب منه أن يتجنب القيام بأي نشاطات عسكرية في المناطق المذكورة ، وأمره بأن ينتظر حتى يصل «ابن سعود» إلى هناك وأن لا يباشر في التقدم لاحتلال مكة . وفي مكة كان الملك

«حسين» قد أعلن عن نيته في البقاء فيها بغض النظر عن المخاطرة التي يمكن أن تلحق بحياته شخصياً، لكنه فقد السيطرة على الوضع هناك وقام أهالي جدة الذين أصبحوا أمام خطر جسيم أكبر من الخطر الناجم عن غضب الملك العجوز، وطالبوا الملك بالتنازل عن العرش ليحل محله ابنه «علي» الذي كانت أمامه على الأقل فرصة أفضل من الفرصة المتوافرة أمام والده للتوصل إلى اتفاق وشروط معينة مع القوات السعودية، وبالتحديد مع «ابن سعود».

وهكذا غادر الملك «حسين» مكة إلى الأبد بعد فترة حكم دامت ستة عشر عاماً أمضى نصفها ملكاً مستقلاً حاكماً بأمره، وتوجه إلى جدة ليرحل منها إلى العقبة أخذاً معه حريمه وكنوز ثروته. لكن لم يمض على وجوده في جدة فترة طويلة حتى أجبرته السلطات البريطانية على التوجه من هناك إلى «قبرص» خشية أن يشجع وجوده هناك القوات السعودية على التحرك شمالاً في وقت لم يكن فيه البريطانيون مستعدون لاحتلال العقبة، لكنهم احتلوا العقبة في صيف عام ١٩٢٥.

خلف الشريف «علي» والده كملك على الحجاز، ولم يدعي لنفسه الحق في حكم مملكة على نطاق أوسع من ذلك كما تصورها والده، كما أنه لم يدعي حقه في أن يكون خليفة على المسلمين، فقد تعطل هذا الموضوع مجدداً وانتقل إلى حيز النسيان وإلى الأبد. لم يكن «ابن سعود» في عجلة من أمره ليصعد الأمور، ولم يصل إلى مكة إلا في بداية شهر كانون الأول حيث دخلها وهو مرتدياً لباس الإحرام كما فعل «سعود الثاني» الذي كان آخر أعضاء أسرة «آل سعود» والممثل الوحيد لتلك الأسرة الحاكمة الذي زار مكة للمرة التاسعة، حيث كانت المرة الأخيرة عام ١٨١٢. وبعد هروب

الملك «حسين» كان «سلطان بن بجاد» قد احتل المدينة المقدسة من دون أية مقاومة، كما تمكن من تهدئة مخاوف أهلها على أرواحهم وممتلكاتهم، علماً بأنه ترك قصور الأشراف هناك عرضة للسلب والنهب، وهدم كافة قباب قبور كبار رجال الدين الأوائل المدونين في مقبرة «المعلاة» وفي أماكن أخرى، كما حدث سابقاً عند دخول مكة المكرمة.

أصبح الآن «ابن سعود» مشغولاً في إعداد الترتيبات لضم بقية مناطق «نجد»، إذ كان من الضروري تلقين القبائل الشرسة العنيدة هناك درساً يجعلهم يقتنعون بأنه لا توجد علاقة مشتركة بين السلام في عهد عبدالعزيز وبين حالات الفوضى التي شهدتها أيام الأشراف. وبالطبع كانت هناك مشكلتا «جدة» و «المدينة» الغير مبتوت فيهما والتي توجب عليه معالجتهما. تطلب حل هاتين المشكلتين مزيجاً من البراعة والإصرار إلى جانب إظهار القوة وإلا فإنه من المحتمل أن تؤدي أعمال عنف جامحة مصحوبة بأعمال وحشية إلى حدوث مشكلات مع بعض القوى الأجنبية، أو تؤدي إلى جرح أحاسيس ومشاعر جماعات إسلامية معينة. قام في تلك الأثناء الشريف «علي» وبعض مستشاريه بتطويق «جدة» بسياج ضعيف من الأسلاك الشائكة، ووضعوا على بعد مسافات معينة منه ألغاماً يشك في مدى فعاليتها، وحشد «ابن سعود» قواته مقابل هذه المواقع ووضع مدافعه في أماكن منخفضة بين التلال على الشريط الساحلي والتي كانت تبعد حوالي عشرة أميال عن المدينة.

وفي اليوم الثالث من شهر كانون الثالث عام ١٩٢٥ بدأ القصف السعودي واستمر على نحو غير منهجي وبشكل متقطع حتى نهاية شهر آذار

حيث سحب «ابن سعود» جيشه باتجاه «مكة» لقضاء استراحة المحارب خلال فصل الصيف وبالتحديد في شهر نيسان الذي تزامن معه حلول شهر رمضان . وجاء موسم الحج في بداية شهر تموز وكان ذلك أول حج يتم الاحتفال به تحت رعاية الملك عبدالعزيز «آل سعود» بعد فترة زادت على قرن من الزمن . قدم إلى موسم ذلك الحج أعداد كبيرة من أهالي «نجد» إضافة إلى جنسيات أخرى تمكنت من الوصول إلى هناك عن طريق موانئ «الليث» و «رابغ» التي كان «ابن سعود» قد احتلها وسخر خدماتها لخدمة هؤلاء الحجاج . وحدث أيضاً أن قدم إلى موسم حج ذلك «الدون ريتير» البريطاني المسلم الذي كتب فيما بعد كتاباً ممتعاً عن تجربته في مناطق الحجاز خلال السنة الأولى من احتلال القوات السعودية لها .

وبالطبع خلال فصل الصيف تم إعداد الترتيبات لاستئناف الأعمال الهجومية في فصل الخريف ، وعليه قدم إلى الحجاز الأمير «فيصل» على رأس قوة كبيرة مجهزة بشكل جيد ، وكان جزء من تلك القوة قد توجه وجهة «المدينة» بقيادة «محمد» وهو ابن آخر من أبناء سلطان «نجد» عبدالعزيز . وبدا الوضع في كلتا المدينتين باعث على اليأس ، وفي الحقيقة غير مبشر بالأمل أو النجاح ، فقد تبين أن المياه والأطعمة المتوفرة لهم لم تكن كافية لمدينتين زاد تدفق اللاجئين عليهما من المناطق المجاورة من تعداد البشر فيهما . وعليه أصدر «ابن سعود» أمراً منع بموجبه القيام بأي عمل يتسم بالاعتصاب والاعتداء على الضعفاء . هذا وأمضى «ابن سعود» جزءاً من فصل الخريف يتفاوض مع السير «جلبرت كلايتون» في وادي «فاطمة» بخصوص الاتفاقيات المتعلقة بـ «الهدا» و «بحرة» ، وذلك ليتوصل إلى

تسوية كافة القضايا المعلقة بين السلطنة السعودية والمناطق العراقية ومناطق عبر الأردن الواقعة تحت الانتداب البريطاني بما فيها حدود مناطق عبر الأردن التي لم يكن من الممكن التوصل بخصوصها إلى اتفاق بسبب رفض «ابن سعود» المطلق الاعتراف بالاحتلال البريطاني لميناء ومنطقة العقبة والذي احتلته بريطانيا باستخدام القوة خلال فصل الصيف .

وبقيت عقدة هذه المشكلة دون حل إلى يومنا هذا بالرغم من أن كلا الجانبين احترما الخط الحدودي الموجود على نشر غير شرعي . استمر حصار مدينتي «جدة» و «المدينة» بشكل متقطع جنباً إلى جنب مع هذه المفاوضات ، وتم حصار «المدينة» تحت قيادة «إبراهيم النشمي» يدعمه في ذلك «فيصل الدويش» ذو السمعة المروعة والذي كان يقود قوة ضاربة من الإخوان . والجدير بالذكر أن أهالي مدينة الرسول ﷺ رفضوا وضع أنفسهم تحت رحمة الإخوان السريعة الغضب وذلك بغض النظر عن نوعية الشروط . وواجهوا الدعوة إلى «ابن سعود» ليرسل ممثل عنه ليشهد استسلامهم له . وما إن وصل «الأمير محمد بن عبد العزيز» بقواته عند حدود «المدينة» حتى سارع الأهالي في الخامس من كانون الثاني بالاستسلام ، وتمت إعادة انتشار قوات «فيصل الدويش» للقيام بعمليات تطهير في مناطق شمالي الحجاز ، وباعتبار أنه لم يتبقى للملك «علي» سوى الحد الخارجي من مدينة «جدة» فما كان منه إلا أن استسلم (بناءً على نصيحة كبار الرسميين لديه) لما ليس له مفر منه ، وطلب من الوكالة البريطانية أن تسخر مساعيها الحميدة لتؤمن رحيله بسلام ولتعد الترتيبات الخاصة باحتلال المدينة . وفعلاً تمت تلك الترتيبات وبعد أن غادر الملك «علي» إلى العراق عن طريق البحر ، فدخل «ابن سعود» إلى

«جدة» في الثالث والعشرين من شهر كانون الأول ليجد نفسه وللمرة الأولى على اتصال دبلوماسي مع عدد من الدول الكبيرة والصغيرة، وليواجه مجموعة من المشكلات العويصة بصفته فاتحاً للأماكن المقدسة التي ورثها عن النظام السابق نظام الاستسلام. وكان هذه الأمور قد صممت في العهود السابقة لحماية الكفار المقيمين على تراب المسلمين، لكنها تحولت لتأخذ شكل مبررات لتدخل الكفار في شؤون الحكومات الإسلامية. ومن البداية أوضح «ابن سعود» أنه لن يتساهل مع أي انتقادات أو تدخل في شريعة الإسلام، وكان عليه أيضاً أن يتعامل مع الرأي العام في العديد من الدول الإسلامية بخصوص الكيفية التي يجب أن تدار بها الأماكن المقدسة. لم يجد «ابن سعود» صعوبة في التخلص من البعثات التي انبثقت عن الوضع ونصبت نفسها هناك وذلك بأن وعدها بأن موسم الحج القادم سيؤمن فرصة مناسبة لمناقشة كافة القضايا التي تهم الشعوب الإسلامية، وأن على الممثلين المعتمدين لهذه البعثات الاجتماع به في مؤتمر الحج القادم.

وهكذا وبعد أن أوضح مبادئه بأنه سيضع سلامة ورفاهية الأماكن المقدسة في مقدمة عمله السياسي، أعرب عن استعداده لتقبل ودراسة أية نصيحة تعرض عليه بخصوص تلك الغاية. شرع «ابن سعود» في تولي شؤون الدولة، وسبب تصرفه ذلك إرباكاً في أواسط الغرب كما أسفر عن انطباع غير مستساغ في بعض الدول الإسلامية التي اعتادت ولفترة طويلة على حكم الدول الأجنبية وبالتالي تصاهرت كلياً مع الثقافات الأجنبية، لكنها احتفظت بولائها للإسلام وفق الطريقة التي فسرها المسلمون.

وفي يوم الجمعة الذي صادف الثامن من شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٢٦ وبعد صلاة الظهر في المسجد الحرام بمكة أعلن تتويج «ابن سعود» ملكاً على الحجاز وسط احتفالات وتقاليد تتمشى مع الشريعة الإسلامية . وكانت تلك الاحتفالات بمثابة تعبير عن الإيمان وتحد لكافة دول العالم ، كان مقدر لتلك الدولة أن تتحسن مع مرور الأيام دون أن تبتعد عن المبادئ التي ارتكزت عليها ، وعن توحيد وعبادة الله الذي لم ينسى «ابن سعود» فضله عليه في كافة الأحوال المتقلبة بين الخير والشر . ولإيمانه بالله وبفضله قاد شعبه على مدى السنوات الطوال القادمة من غياهب الضياع إلى أرض تكثر فيها الخيرات .

انتهت المعركة التي دامت لمدة أربعة وعشرين عاماً ، وبقيت أمامه فترة أربع سنوات لجني ثمار النصر الذي حققه وليطور ذلك النصر ليخدم مصالح الأجيال القادمة التي لم تعرف كما أنها لم تسمع صرخة الحرب التي كانت تنبعث من حناجر الإخوان السعوديون .